مفتتح العدد

دائماً .. التغيير ممكن!

وسيم الكردي

(1)

لثلاثة أشهر لم يتمكن المعلمون من تلقي معظم رواتبهم، حيث يحتجز الإسرائيليون أموال الضرائب الفلسطينية التي يذهب معظمها لرواتب الموظفين، هكذا تفعل الحكومات الإسرائيلية منذ عقدين، حين تقرر أنه ينبغي الضغط علينا أكثر فأكثر، أو حين تبتغي منا تنازلاً إضافياً ما أو انصياعاً جديداً، أو لرغبتها في تذكيرنا بأنَّنا واقعون تحت سلطتها، أو لمنعنا من أن نخطو في حياتنا خطوات أكثر من «اللازم» حيث ينبغي إبطاء ذلك ... الخ، وفي كل مرة نقع في الفخ نفسه، ونقع في الحبائل نفسها، ولا نتعلم الدرس من مرة ولا اثنتين ولا ثلاث ولا عشر. وهنا لا أدري أي تعليم سينمو حيث لا يمكن للمعلم أن يعيش بكرامة، أو أن يجتني قوت يومه له ولعياله. والمسألة هنا ليست مسألة راتب فقط، فأنا على يقين أن الناس يمكنها أن تضحي ليس براتبها فحسب، بل بأكثر كثيراً من ذلك، حين تحس بأن ما تفعله هو تضحية سيجتني منها الشعب في يوم ما، وأن صمودها له معنى عميق. أما أن نتحول إلى شعب من المتسولين، ونغدو لاهثين وراء لقمة عيشنا وحسب، ونصبح بلا مشروع وطني إنساني حضاري يتطلب قيادة تدرك كيف تتعامل مع كل هذا الخراب الذي يحيط بنا، وهذا الخراب الذي بات يعشش فينا أكثر فأكثر، وبخاصة في العقدين الأخيرين ... فهذا قطعاً أمر مريع، ولا بد من مواجهته.

(2)

لم نتمكن، كفلسطينيين، من التقاط لحظة تاريخية بين أيدينا حين كان بإمكاننا أن نعيد النظر في كثير من مناحي حياتنا؛ إدارة صمودنا ونضالنا بحنكة ودراية، إدارة حياتنا اليومية. كان يمكننا أن نحدث ثورة في الصحة والإدارة والتعليم والسياحة والآثار، صحيح أن الاحتلال سيعرقل كل ذلك، ولكن الشعوب إن أرادت فإنها ستجد طرائقها في المقاومة والاستمرار وحفظ روحها، والنفخ في جذوتها لتبقى مشتعلة، وإن كانت نائسة في بعض الأحيان.

(3)

كان يمكننا أن نحدث تغييراً جوهرياً في التعليم؛ في المناهج (التي قزمت، ولم يشأ أن يعترف أحد بذلك، أما اليوم فالكثيرون يلوحون برايات الإصلاح) في التكون المهني للمعلمين (حيث أننا لم نتمكن من إحداث تغيير جوهري في التكون المهني للمعلمين؛ سواء من قبل المؤسسات الأكاديمية أو عبر برامج التدريب الحكومية، ومعظم برامج التدريب المبنية على أجندات أجنبية).

(4)

ومع ذلك، فطالما أن هناك شعباً لا يموت ولا ينتهي، فليس هناك «فوات أوان»، إن خطوة نحو التغيير هي دائماً ممكنة، صحيح أنها تتطلب الكثير من العوامل كي تتضافر من أجل خطوها، ولكنها في الأحوال جميعها ممكنة، وإذا توفرت إرادة للتغير، فإن كل شيء ممكن، إن فقدان الوصلة أو اهتزاز الثقة أو الارتهان للواقع لن يجلب لنا سوى

من فعاليات أيام العلوم الفلسطينية في غزة 2014.

مزيد من التقهقر. ولذلك، فإننا أمام تحديات وجودية، وليس مجرد تحديات عابرة أو طارئة، ولن يأتي لنا خلاص من الفضاء.

(5)

لقد قدمت لجنة مشكلة من قبل رئيس مجلس الوزراء تقريراً للمجلس الوزاري حول واقع التعليم في فلسطين، واقتراحات عديدة في كل المجالات، ويقوم التقرير أساساً على أنه ينبغي أن نفيد من المنجز الذي حققه التعليم في بلادنا، وأن هناك ضرورة إلى إحداث تغيير جوهري في معظم مناحيه. إذن، لدينا تقرير أمام مجلس الوزراء (وهو أمامكم أيضاً؛ فهو منشور في هذا العدد من «**رؤى تربوية**» وهذا التقرير يحتاج إلى خطوات عملية ومنهج فعل حقيقي من أجل المباشرة في التغيير؛ التغيير المتزامن في كثير من المجالات، والتغيير الجذري في مجالات محددة، والتغيير التدريجي في مجالات، والتغيير بناء على الأولوية في مجالات أخرى. ولكن في جميع الأحوال، فإن المسألة ليست مسألة إجرائية أو إدارية بحتة، إنها في جوهرها مسألة تتصل بالرؤيا والمفاهيم والقيم، وهذا يتطلب قيادة التغيير في الرؤية والمنظور من خلال الممارسة الفعلية؛ الممارسة التي تعمّق الرؤى، والرؤى التي تطور الممارسة؛ إنهما عمليتان متداخلتان ينبغي تضافرهما معاً.

(6)

لست متأكداً من أن مجلس الوزراء سيفعل كل ما ينبغي في هذا الاتجاه، وهنا لا أتكلم عن النوايا الحسنة، بل عن الأفعال الحسنة، كما أن هناك مقاومة للتغيير ستظهر من الكثيرين؛ سواء في المؤسسة الرسمية أو السياق المجتمعي، ولذلك فإن نشرنا للتقرير، وهو بالمناسبة ليس تقريراً حالماً، وليس تقريراً مُرضياً بدرجة كافية لكثيرين، فأنا، مثلاً، لا أعتقد أن التقرير ينسجم تماماً مع تطلعاتي للتغيير في المجال التربوي، ولكنه في الحقيقة أهم من ذلك، لأنه يمثل تسوية بين قطاعات مختلفة من المجتمع، ورؤى متعددة كانت متضاربة في كثير من الأحيان، إنه تقرير يشكل خلاصة لعمل جماعي لمجموعة من الناس المختلفين والمؤتلفين ما بين رؤى وأخرى.

(7)

ولأن هذا التقرير لا يمكن أن يكون مكتملاً بذاته، فإن محكه الجوهري يقوم على الفعل، ما الذي سنفعله اليوم؟ وما الذي سنفعله غداً؟ وهذا الفعل لا ينبغي أن يكون مقتصراً على «جهات مسؤولة»، بل على المجتمع برمته، وإلا وقعنا فيما وقعنا فيه قبل عشرين عاماً، وكأننا نحرث البحر. إن دوركم، كمعلمين وتربويين وأهال ومؤسسات، جوهري في هذه الرحلة المبتغاة، ودون ذلك فإن تغييراً حقيقياً لن يحدث، ولن يكون للتعليم دور في انتشال المجتمع فيما هو فيه، ولن يكون ممكناً الانتقال إلى المستقبل بخطى طموحة.

(8)

ولا أود هنا في هذه الافتتاحية أن أمر على التقرير أو أهم ما ورد فيه أو أقدم خلاصة له، بل إنني أدعوكم إلى الذهاب إليه مباشرة وقراءته ومحاورته، فهناك الكثير مما يمكن أن يقال فيه، والنظر في دوركم الممكن في هذه العملية التي ينبغي أن يكون لنا جميعاً فيها دور مهما صغر أو عظم، فبالتأكيد سيكون له أثره على المدى المنظور، وكذلك على المدى البعيد.

من أحد مساقات المدرسة الصيفية: الدراما في سياق تعلمي 2014.